

## مكانة ميتافيزيقا الاخلاق في فلسفة كانط

المدرس المساعد

فيداء حبيب علي

جامعة البصرة / كلية الاداب / قسم الفلسفة

### المخلص:-

نحاول في البحث تسليط الضوء على مكانة ميتافيزيقا الاخلاق لدى كانط من خلال فلسفته النقدية وبيان أهمية ومكانة الميتافيزيقا أولا في فكر كانط منذ بداياته ومن خلال نقده للميتافيزيقا الدوجماتيقية (التقليدية) المتمثلة في تيارا الفلسفة العقلية والفلسفة التجريبية وبيان قطعية كل منهما في أعلاء شأن العقل عند العقليين ، او الحواس عند التجريبيين . ولا بد لبيان ذلك من أستعراض تاريخ الميتافيزيقا وموضوعاتها ومناهجها ثم الوصول الى الميتافيزيقا البديلة التي وضعها كانط متمثلة بميتافيزيقا الاخلاق من خلال المنهج النقدي الكانطي.

أذن يقوم هذا البحث على ثلاثة محاور اساسية هي :

- ١ . الميتافيزيقا التقليدية قبل كانط.
- ٢ . النقد الكانطي للميتافيزيقا التقليدية.
- ٣ . ميتافيزيقا الاخلاق الكانطية (البديلة).

## *The Value of The Metaphysics Of Ethics in Kant's Philosophy*

*Asst.Lecturer . Ghydaa Habeeb Ali*

*University of Basrah / College of Arts*

### **Abstract:**

The present study attempts to shed a light on the place of the metaphysics of ethics in Kant's metaphysics and its importance in his philosophy.

In order to reveal this point we will provide a brief summary of some metaphysical attitudes through the history of western philosophy, and then we will classify his metaphysical attitudes of the question which was given very high place in his philosophy.

**المقدمة :-**

من الصعب أن نتحدث عن ميتافيزيقا كانت وأهميتها دون العودة لتاريخ الفلسفة الغربية التي ينتمي اليها كانط الذي تأثر به ووجه له نقده . لذا نحاول إعطاء نبذة موجزة عن تاريخ الميتافيزيقا . نبين فيه متى بدأ ؟ وما هي التساؤلات الأولى التي طرحها الفلاسفة ؟ ما طبيعة الموضوعات التي تبحث فيها وما المشكلات التي أثارها ؟ وغيرها من التساؤلات.

جرى تقسيم مباحث الفلسفة الى مباحث رئيسية هي (المنطق، الابستمولوجيا، الاكسيولوجيا ، الانطولوجيا). ومبحث الميتافيزيقا نوقش من قبل الكثير من الفلاسفة والمذاهب الفلسفية بين مؤيدٍ وناقِدٍ لها. الا ان الميتافيزيقا خاصة والفلسفة عامة وقفت عند نقطة متميزة تماما مع امانويل كانط ، فشطرت الفلسفة الحديثة الى شطرين ، ما قبل كانط وما بعد كانط. ويقوم هذا البحث على ثلاثة محاور أساسية هي (الميتافيزيقا التقليدية ، النقد الكانطي ، الميتافيزيقا الكانطية).

فماهي الميتافيزيقا التقليدية ؟ وما هي موضوعاتها ومنهجها ؟ وما النقد الذي وجهه كانط لها ؟ وهل كان كانط اول من تصدى لنقدها ؟ وما البديل الذي أقترحه لهذه الميتافيزيقا؟ وماهي النقدية المثالية الكانطية ؟ وكيف وظفها كانط في تقديم ميتافيزيقاه البديلة ؟ كلها تساؤلات تطرقنا لها في هذا البحث.

**أولاً / الميتافيزيقا والتساؤلات الأولى في الفلسفة الغربية**

شغل الإنسان دائماً بمعرفة أسرار الكون وحاول أن يتمكن من السيطرة على الطبيعة ويستعين بكل امكانيات التفكير لأجل الوصول الى حالة الإرضاء التي يطمح إليها. وكان التفكير في الوجود قد أخذ حيزاً كبيراً في حياته . فكان يطرح الاسئلة ويبحث عن إجابات. فكيف تجلت هذه التساؤلات كمبحث ؟ وهل وصل الفكر الى إجابات حاسمة ؟

جعل بعض مؤرخي الفلسفة ، مبحث الميتافيزيقا شاملاً لمبحث الوجود ونظرية المعرفة معاً<sup>(١)</sup>. وليس من الممكن الوصول إلى تعريف دقيق لكلمة الميتافيزيقا ، ومن اجل الإمام بمعناها يجب التصدي لموضوعاتها ، ويمكن القول : هي العلم بأعم المبادئ المنصبة على الحقيقة الواقعية . ويتحقق العمل الجاد في مسائل الميتافيزيقا بالمسائل المنفردة المنفصلة . فلو أمكن توضيح هذه المسائل توضيحاً تاماً ، لبدأ على الحقيقة الحديث عن الميتافيزيقا من حيث أنها علم موحد<sup>(٢)</sup> .

يجد كل إنسان يفكر نفسه بسهولة شديدة في قلب الميتافيزيقا عندما يسأل نفسه ماذا أكون ؟ من أنا ؟ ولماذا أنا هنا ؟ وكيف جئت إلى هذا الوجود ؟ وما هو مستقبلي؟ .. الخ. إذ لابد أن تؤدي هذه الأسئلة إلى طرح المزيد من التساؤلات عن طبيعة الوجود الذي وجد نفسه فيه ، عن خصائصه وسماته ولواحقه . فإذا كانت الميتافيزيقا تبدأ كبحت في الوجود ، فأنها سرعان ما تتحول إلى دراسة عن طبيعة هذا الوجود ، أي خصائصه العامة ، وكلما تقدم البحث وتركز الانتباه ظهر سؤال آخر هو (أي هذه الخصائص أكثر عمومية وكلية من غيرها ؟) عندئذ تصبح الميتافيزيقا بحثاً في الخصائص الكلية للوجود<sup>(٣)</sup> .

ومن خلال استعراض تاريخ الميتافيزيقا ندرك أن ثمة نمطين متميزين من التفكير قد ملأ التاريخ بالصراع الناشب بينهما. العقليون القائلون بأولية المبادئ والتجريبيون القائلون بأولية الوقائع ، ولما كانت المبادئ كلية والوقائع جزئية ، ربما كان من الأفضل في وصف هذين الاتجاهين في القول بان التفكير العقلي يمضي من الكل إلى الأجزاء ، بينما التفكير التجريبي يسير من الأجزاء إلى الكل. ويفضل العقليون أن يستخلصوا الوقائع من المبادئ . ويؤثر التجريبيون تفسير المبادئ باستقراءها من الوقائع<sup>(٤)</sup> .

اذن متى بدأت الشذرات الاولى للتساؤلات الميتافيزيقية بالظهور ، وكيف حدد المؤرخون هذه التساؤلات ، وما هي الموضوعات التي تناولتها الميتافيزيقا ، هذا ما سنعرض له في السطور القادمة .

ذهب بعض الباحثين إلى أن تاريخ الميتافيزيقا في الفلسفة الغربية يبدأ مع فلاسفة الكوسمولوجيا الأيونيين في القرن السادس قبل الميلاد ، لأنهم أول من تساءلوا عن أصل الكون المادي والمادة الأولى التي يتألف منها ، وتساءلوا أيضاً عن قوانين الأطراد التي تسري في الطبيعة في كل مكان . فيمكن على ذلك القول أن " طاليس " أول الميتافيزيقيين لأنه أول من تساءل عن أصل الأشياء ، وأرجعها إلى أصل واحد هو الماء. ثم جاء " أنكسمندر " وراى أن الأصل النهائي أو المبدأ الأول ، غير محدد ، وغير متناه ، وأطلق عليه ( الأيرون )<sup>(٥)</sup>.

أما معظم الخصائص النمطية للميتافيزيقا كبحت فلسفي تنسب إلى كتابات بارمنيدس<sup>(٦)</sup>. وبارمنيدس هو أول فيلسوف أطلق حكماً ميتافيزيقياً عن الوجود في عبارته الشهيرة (الوجود موجود واللوجود غير موجود)<sup>(٧)</sup>.

و عند أفلاطون ، فإنه أعتقد أن عالم الحس هو عالم التغير ، لذا فهو غير حقيقي؛ ويرى أن المعرفة لا تُستمد من الحواس التي يعطيها عالم الظاهر المتغير ، بل يصل إليها العقل وحده الذي يقودنا إلى عالم المثل. ويمكن القول إن الإسهام الحقيقي لأفلاطون في مجال الميتافيزيقا يكمن في نظرية المثل<sup>(٨)</sup>.

فقد عبر أفلاطون عن مشكلة من أهم المشكلات التي شغلت الفلاسفة ، وهي مشكلة الظاهر والحقيقة ، أي الشئ كما يبدو لنا وكما هو عليه في حقيقته. فجعل التمييز بين الظاهر والحقيقة مرتبلاً بنظرية المعرفة ، فميز بين ما هو علم وما هو ظن ، فالذي يبني أحكامه على العقل هو تفكير حقيقي ، أما الذي يبني أحكامه على مظاهر فقط فإن هذا يُعد ظناً<sup>(٩)</sup>.

أما أرسطو الذي يُعد مؤسس علم الميتافيزيقا ، وهو الذي حدد أهم مشكلاتها ، وميزها عن مجالات المعرفة الأخرى ، وأطلق عليها أسم الفلسفة الأولى أو الحكمة<sup>(١٠)</sup> فهو المصدر غير المباشر لكلمة (الميتافيزيقا) التي أطلقها أندرونيقوس الروديسي على أبحاث أرسطو بعد (الفيزيقا). فكان أرسطو يسميها بالعلم الأول ، وأحياناً يسميها بالحكمة ، وأحياناً أسماها اللاهوت أو الإلهيات . و يرى أرسطو أننا إذا ما رتبنا

العلوم على شكل هرم فأنها ستنتهي عند قمة الهرم بعلم واحد هو أعم العلوم وهو علم الوجود ، وهو العلم الأول المفروض منطقياً على أي علم<sup>(١١)</sup>.

أما في العصر الهلنستي فقد ظهر في الأفلاطونية المحدثة ، ميتافيزيقيون عظام على درجة كبيرة من الأصالة ، حيث شكلوا حلقة تربط بين الميتافيزيقا القديمة وميتافيزيقا العصور الوسطى . وتعد فلسفة أفلوطين نموذجاً للمذهب الميتافيزيقي الذي يؤكد عدم حقيقة الأشياء الجزئية التي نشاهدها في خبرتنا اليومية. والملاحظ في ميتافيزيقا أفلوطين هو الشئ الرئيسي البارز في كل ميتافيزيقا ، هو التفرقة بين المظهر والحقيقة ، فما تدركه الحواس يطرأ عليه التغير والفساد ، ولا يشكل المعرفة الحقيقية ، لأن المعرفة الحقيقية هي معرفة (الواحد) الذي نصل إليه في حركة أقرب للتصوف ، ونهبط منه بوساطة التدليل العقلي . فما تزال الميتافيزيقا هي دراسة الوجود الحق ، ومن ثم تلتقي باللاهوت<sup>(١٢)</sup> .

و بعد ظهور المسيحية ، فهل تغيرت وجهة الميتافيزيقا وموضوعاتها ؟ هل ساهم الدين المسيحي في توجيه الفكر نحو مشكلات جديدة ؟ تتجلي الاجابة في العصور الوسطى ، لدى قديسي هذا العصر .

ساعد ظهور المسيحية في العصور الوسطى على توجيه الفكر الإنساني نحو كثير من المشكلات الميتافيزيقية ، ومنها فكرة الوجود الكامل ، العناية الألهية ، التفاؤل المسيحي ، الحب ، الشر.. الخ<sup>(١٣)</sup> . فقد شغلت مشكلة الشر القديس أوغسطين ، وظلت مشكلة الشر المشكلة المحورية في ميتافيزيقا الدين عنده<sup>(١٤)</sup> . إذ ان ميتافيزيقا أوغسطين تتدرج من النفس أو الذات إلى الله إلى العالم<sup>(١٥)</sup> .

أما ميتافيزيقا القديس توما الأكويني فتعتمد على محاولة شرح الفروق والخصائص الأساسية بين الوجود والماهية ، بين الضروري والحادث ، بين الكليات والجزئيات ، بإستخدام ميتافيزيقا أرسطو ، مستعيناً بشروح ابن سينا<sup>(١٦)</sup> .

وبعد فلسفة العصور الوسطى المسيحية وسيطرة الكنيسة ، جاء عصر النهضة ، والتخلص من هذه السلطة ، وهنا يدور سؤال حول علاقة السلطة المهيمنة ، وهي

سلطة الكنيسة ، بالميتافيزيقا والمنهج المختلف ؟ فكانت هناك محاولات في العصر الحديث لإعادة اكتشاف الكون والإنسان بمناهج جديدة، وانتقلت الميتافيزيقا من دراسة الوجود إلى المعرفة ، من الموضوع إلى الذات .

فأراد ديكارت رائد الفلسفة الحديثة تحرير الفكر و الدعوة إلى اليقين العقلي<sup>(١٧)</sup>. و يعد مذهب ديكارت من ادق المذاهب الميتافيزيقية الثنائية التي ظهرت في الفلسفة . حيث ان المبدآن النهائيان في المصطلح الديكارتي (الذهن ، المادة) يوصفان على أساس أهم صفاتهما و أكثرها تفرداً ، لذا يسميهما (الفكر و الأمتداد) ، أو بمعنى دقيق ( الجوهر المفكر، والجوهر الممتد)<sup>(١٨)</sup>.

والمنهج الذي يحدد ماهية الميتافيزيقا هو المنهج الذي وصل إليه الفيلسوف بملاحظة الفكر المجرد الذي يعبر عنه الفكر الرياضي . بأعتبار الميتافيزيقا علماً دقيقاً يمكن أثبات قضاياها بيقين رياضي. وقد جعل ديكارت الميتافيزيقا أساس العلوم ، و استخدم في كتابه " التأملات " الشك كوسيلة منهجية للوصول إلى الحقيقة التي لا يمكن أن يتطرق الشك إليها.<sup>(١٩)</sup>.

و ذهب أسبينوزا إلى أعتبار الوجود من (مادة و فكر) حقيقة واحدة ، فكان داعية لمذهب وحدة الوجود<sup>(٢٠)</sup>. وقد استخدم منهجاً أشبه بمنهج ديكارت العقلي . و في ميتافيزيقاه فالله هو الجوهر الوحيد للعالم ، وهو متحقق في الطبيعة وليس مستقل عنها ، أي أنه موجود بالضرورة في العالم وهو علة جميع الأشياء ، وكل شئ موجود في الله و لا وجود لشيء بدونه<sup>(٢١)</sup>.

وليبزراى أن الحقيقة النهائية هي الأرواح أو الذرات الروحية التي يطلق عليها المونادات، ونشاطها يكمن في العقل ، لذلك فهو ينكر أولية المادة ويُعلي من شأن العقل والتفكير، فيقرر وجود عنصراً سلبياً في الذرات الروحية يحول دون وضوح إدراكها . أي كلما رجح الجانب الروحي في الكائن على العنصر المادي كان أكثر وضوحاً في إدراكه و لذلك فحقائق العقل هي أسمى و أرفع من حقائق الواقع أو المادة

الجزئية ، وبالتالي لا بد من التمييز بين حقائق العقل الضرورية الخالدة ، وحقائق الواقع التجريبي الحادثة<sup>(٢٢)</sup>.

نجد ان الميتافيزيقا في الفلسفة الحديثة ، أستقت من أرسطو أهم مفاهيمها وهو (الجوهر) ، فهل يمكن القول أن توظيف الجوهر اختلف عما كان عند أرسطو؟ كان مفهوم الجوهر هو الفكرة الأكثر بروزاً في الأنظمة الميتافيزيقية عند أسبينوزا و ليبنز ، وأيضاً عند ديكارت. فحقيقة بروز مفهوم الجوهر في الميتافيزيقا الحديثة المبكرة يعكس أساساً تراث أرسطو قبل كل شيء ، و الفلاسفة المحدثين المبكرين مدينون لأرسطو بمصطلح الجوهر، وقد أستخدموه لبلورة رؤية فلسفية مختلفة للعالم عن تلك التي موجودة عند أرسطو ، فهم يميلون إلى إدخال المفهوم في محتوى جديد . إلا أن ديكارت و في (مقال عن المنهج) أقترب من الأستغناء عن مصطلح (الجوهر) بمصطلح آخر هو (الشيء)<sup>(٢٣)</sup>.

يبدو من خلال أستعراض موجز للتساؤلات الميتافيزيقية في الفلسفة الغربية أن الميتافيزيقا تمثل جوهر الفلسفة. مع اختلاف المدراس الفلسفية ، و المناهج المتبعة فان الميتافيزيقا احتلت مكانتها كونها اهم المباحث الفلسفية .

### **ثانياً / المثالية النقدية الكانطية ومكانة الميتافيزيقا**

صنف بعض الباحثين كانط بأنه فيلسوف مثالي ، ولكن هل كانط مثالي ؟ يقول كانط في مقدمة الطبعة الثانية لنقد العقل المحض، الشيء الوحيد الذي أضفته في هذه الطبعة هو دحضه للمثالية الذاتية المادية، لجورج بركلي ، فمثالية كانط النقدية تذهب الى التمييز بين الظواهر العقلية السابقة على كل تجربة ، وكانط يعترف بهذا ويقول ان هناك ظواهر عقلية تسبق كل تجربة. وهناك ما تكتسب بالتجربة ، أي قبلية وبعدية ويمكن التمييز بينهما.

يقع تطور كانط الفكري في ثلاث مراحل رئيسية مهمة ، المرحلة الأولى كما معظم الفلاسفة الألمان في عصره ، كان فيلسوفاً عقلياً ، متأثراً بـ ( ليبنز و فولف ) ، ومع ذلك تظهر في مقالاته آنذاك علامات الأصالة وعدم الرضا عن المذهب العقلي . أما

المرحلة الثانية فتأثر فيها إلى حد ما بالفلاسفة التجريبيين البريطانيين. إذ أن مقالات هيوم وأبحاثه أيقظته من سباته الدجماطيقي ، وقادته لأستنتاج أن كل معرفة تبدأ بالتجربة<sup>(٢٤)</sup>.

وفي هذه المرحلة عرف كانط أيضاً في مجال الأخلاق كثيراً من فكر فلاسفة الأخلاق البريطانيين ، وخاصة (شافتسيري ، وهاتشيسون ، وهيوم)<sup>(٢٥)</sup>. وقبل مرحلة النقد أزداد شعور كانط بالطبيعة الجدلية للميتافيزيقا ، و أنكب على إعادة النظر في حدودها<sup>(٢٦)</sup>. ثم تأتي المرحلة الثالثة أي المرحلة النقدية ، التي تكون لوحدها أهمية عالمية<sup>(٢٧)</sup>. فكانت بنى نظرية جديدة ، أذ يعتقد أنها تكفي لتفسير إنجازاته. فقد تصور الذهن ينقسم لثلاث ملكات أولية ، هي ملكة المعرفة ، وملكة الإرادة ، وملكة الشعور، ويكرس لكل منها كتاباً من كتبه النقدية الثلاثة<sup>(٢٨)</sup>.

قد يرى البعض أن اهتمام كانط بالميتافيزيقا جاء متأخراً ، الا أن الحقيقة ، ومن خلال تتبع إنجازات كانط الفكرية نجد أن اهتمامه بالميتافيزيقا كان مبكراً جداً، ومنذ بداياته الفكرية الأولى ، لذا سيكون تتبعنا في السطور القادمة مختص بإنجازاته الميتافيزيقية ، لبيان أهمية هذا المبحث في فكر كانط.

وفي عام ١٧٥٥ أجرى بحثه بأطروحته التأهيلية بعنوان (أضواء جديدة على المبادئ الأساسية للمعرفة الميتافيزيقية ) في النزاع الميتافيزيقي الدائر بين (وولف و كروزيوس) ، وأخذ كانط موقفاً مستقلاً بصورة بارزة<sup>(٢٩)</sup>.

وفي عامي ١٧٦٢ و ١٧٦٣ أصدر أربع مقالات ، دخل من خلالها إلى ميدان الميتافيزيقا ، وكان مختلفاً عن غيره ، فلم يتسلح بخطة ترمي لرفع صرح عمارة فكرية تفوق سابقتها في العظمة والروعة ، إنما دخل الميدان ليتفحص الأرضية ويقوم بتطهيرها من التأمّلات التي لا تستند إلى برهان ولا تقبل إقامة البرهان عليها<sup>(٣٠)</sup>.

فيرى كانط أن عدم التبصر الذي وقعت فيه الميتافيزيقا يستند للأفترض التاريخي في اعتبار الرياضيات بمثابة العلم القادر على السيطرة على الواقع سيطرة كافية . فوقف كانط بوجه هذا الإدعاء في مقالته الصادرة عام ١٧٦٣ بعنوان ( بحث في

وضوح مبادئ اللاهوت الطبيعي و الأخلاق). وفي العام نفسه صدرت له مقالة مكرسة للموضوع الأهم في الفلسفة التأملية وهو ( ماهية الله ) بعنوان ( البرهان الوحيد الممكن للتدليل على وجود الله ). فالحجج التي توسلها الميتافيزيقيون المعاصرون له للتدليل على وجود الله كانت ثلاثاً في الدرجة الأولى : ( الدليل الكوني ، الدليل الطبيعي ، الدليل الوجودي)، والدليل الوجودي هو الأوسع شهرة<sup>(٣١)</sup>.

ويمثل عام ١٧٦٤ مرحلة رفض كانط للمنظومات الميتافيزيقية المتوافرة ، فقد كتب بحثه المهم بعنوان ( دراسة في بدهة مبادئ اللاهوت الطبيعي والأخلاق ) ، وبين في هذا البحث الفارق الكبير بين الرياضيات والميتافيزيقا<sup>(٣٢)</sup>.

وفي العام ١٧٦٦ قد ألف مؤلفاً أسماه ( أحلام راء مفسرة في ضوء أحلام الميتافيزيقا)، أنتقد فيه أصحاب المذاهب الروحية<sup>(٣٣)</sup>.

و بعد مشوارٍ فكري متأمل طويل الأمد ، جاءت مرحلة نضوج وتكامل فلسفة كانط الخاصة به متمثلة في واحد من أهم الكتب الفكرية ليس على المستوى الشخصي لكانط بل على مستوى الفكر البشري عامة ، إذ أنّ هذا الكتاب ترك بصمته الفكرية واضحة على كل من قرأه لأنه يفتح آفاقاً واسعة في الفكر.

فيمكن القول أن فلسفة كانط الناضجة الخاصة به تبدأ بكتاب " نقد العقل الخالص" ١٧٨١ وأشهر تسمية لها هي " الفلسفة النقدية" <sup>(٣٤)</sup>.

ونشر في اواخر ١٧٨٣ (المقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تصير علما) وهي بمثابة إحياء لنقد العقل المحض

ثم يظهر مذهب كانط الأخلاقي ، فيُعد كتاب " تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق " ثمرة ناضجة من ثمار المرحلة النقدية ، حيث ظهر سنة ١٧٨٥ (أي بعد ظهور نقد العقل الخالص بأربع سنوات ، وبعد طبعته الثانية بعامين)، حيث أستطاع كانط في هذا الكتاب أن يدعم أفكاره عن الأمر الأخلاقي المطلق ، ويعرض للخطوط الرئيسية للأخلاق النقدية ، ومهد بذلك لكتاب " نقد العقل العملي"<sup>(٣٥)</sup>. وفي عام ١٧٨٨ صدر

كتاب " نقد العقل العملي" <sup>(٣٦)</sup>. وفي عام ١٧٩٠ صدر كتاب " نقد ملكة الحكم " وبه أكتمل نظام النقد <sup>(٣٧)</sup>.

وفي العام ١٧٩٧ نشر " ميتافيزيقا الأخلاق" <sup>(٣٨)</sup>. وميتافيزيقا الأخلاق يضم قسمين (عقيدة الحق ، التي تتعامل مع الحقوق التي لدى الناس أو التي يمكن الحصول عليها ، وعقيدة الفضيلة ، التي تتعامل مع الفضائل التي يجب الحصول عليها) <sup>(٣٩)</sup>. وكتاب ميتافيزيقا الاخلاق مترجم الى اللغة الانكليزية و غير مترجم للعربية الى اليوم. وفي سنة ١٨٠٣ قبل وفاته بعام واحد نشر كتابا في التربية ، كما أنه أتم كتابة بعض اجزاء من كتاب لم يكتمل أبدا عن كيفية الانتقال من الاسس الميتافيزيقية للعلم الطبيعي الى علم الفيزياء. <sup>(٤٠)</sup>.

اذن من خلال متابعة نتاجات كانط منذ بداياته الاولى وحتى بعد اكتمال كتبه النقدية نجد اهتماماً واضحاً بالميتافيزيقا لم يقف عند مجرد البحث في الميتافيزيقا او الاخذ بها كما هي بل كان هناك موقفاً واضحاً منها تمثل بالنقد الصريح للمناهج المتبعة من قبل الفلاسفة السابقين عليه والمعاصرين له والهدف من النقد ما سيتضح لاحقاً.

### ثالثاً / نقد كانط للميتافيزيقا القطعية

لم يكن كانط اول من تصدى لنقد الميتافيزيقا ، لكن النقد معه أخذ طابعاً مميزاً كونه يهدف الى إعادة بناء منظومة الميتافيزيقا بناءً رصيناً بعيداً عن الدوجماتيقية .

تزعم الميتافيزيقا إنها تستطيع الإحاطة بموضوعات بعيدة كل البعد عن عالم التجربة . وهي لا تقتصر على ربط الأشياء التي تقع عليها حواسنا بماهيات مجاوزة للمحسوسات كالجواهر أو العلل الخاصة ، وإنما تزعم أن بقدرتها بلوغ موضوعات غير مشروطة ومطلقة ، مثل النفس باعتبارها موضوعاً في ذاته ، والعالم بأعتبره حقيقة مطلقة ، والله بوصفه أساساً لكل حقيقة . تلك موضوعات متميزة كل التميز عن الظاهرات : وهي بتعريفها تتجاوز كل تجربة ممكنة ، فلا تكون موجودة إلا إذا

أستعصت على الحواس ، الباطن والظاهر منها على السواء . هل مثل هذه الموضوعات يستطيع الإنسان الإحاطة بها علماً ؟ هذا هو السؤال الذي يُشيدُهُ النقد<sup>(٤١)</sup> . فهل تمكن النقد الكانطي من الاجابة؟

في كتاب مقدمة لكل ميتافيزيقا ممكن أن تصير علماً ، قدم كانط نقده للميتافيزيقا كأربعة أجزاء متوالية أو متدرجة (للجدل الترانسندنتالي الرئيسي). والنقطة النهائية هي ما أصطلح عليه السؤال العام أو الشامل للمقدمة النقدية (كيف يمكن أن تكون الميتافيزيقا علماً؟)<sup>(٤٢)</sup> . اي كيف يمكن للميتافيزيقا مجازاة تقدم العلوم ؟ وان تكون علماً كعلم الرياضيات فيما تصل اليه من نتائج؟

يرى كانط أن الفلسفة قبله كانت موزعة بين تيارين رئيسيين : تيار النزعة العقلية الذي يرى أن الحقائق المتعلقة بالطبيعة وبما فوق الطبيعة إنما تدرك بالعقل وحده مستقلاً عن التجربة الحسية . والثاني تيار النزعة التجريبية التي أرادت أن تقصر المعرفة على ما تأتي به الحواس، ومن ثم هاجمت الضرورة والشمول وغيرها من الأفكار العقلية التي لا غنى عنها في كل معرفة حقة<sup>(٤٣)</sup> .

وتبدأ ميتافيزيقا كانط بنقد الميتافيزيقا القديمة التي أطلق عليها الميتافيزيقا القطعية أو الدجماتيقية (Dogmatism) . وكان يستهدف من ذلك إقامة ميتافيزيقا جديدة هي التي اسماها الميتافيزيقا النقدية ، فما الذي كان يعنيه بهذه الميتافيزيقا الكلاسيكية القديمة التي شرع في تقويضها؟<sup>(٤٤)</sup> . ففي كتابه " نقد العقل الخالص " يحاول أن يلتمس للميتافيزيقا طريقة للبحث بحيث تجعلها علماً على غرار علمي الرياضة والطبيعة . حيث حاول أن يبرهن إنَّ البحوث الميتافيزيقية التي كانت شائعة حتى عصره ، تخلو من الصيغة العلمية ، وهي البحوث التي تناولت النفس ، العالم ، الله . حيث يبين أنه كلما انطلق العقل في ادعاءاته النظرية المجردة وأبتعد عن التجربة أدى به هذا إلى الوقوع بمتناقضات لا حد لها . لذا أراد في كتابه " نقد العقل الخالص " (\*\*\*) تمهيد السبيل لميتافيزيقا تخلو من أخطاء الميتافيزيقا القديمة ، فكان الكتاب بمثابة منهج يكشف الطريق الصحيح للبحث الميتافيزيقي<sup>(٤٥)</sup> . إذ يقول

في مقدمة الطبعة الثانية لهذا الكتاب : (( إن محاولة تغيير أسلوب الميتافيزيقا السابق بالقيام بثورة كاملة فيما أقتداءً بعلماء الهندسة والطبيعة ، هي إذن شاغل نقد العقل النظري المحض هذا . إنه مبحث في المنهج وليس سستاماً للعلم نفسه ، إلا أنه يبين مع ذلك معالمه بأكملها ، سواء لجهة حدوده أم لجهة أبنائه الداخلي كله))<sup>(٤٦)</sup>.

فالميتافيزيقا القطعية كما يرى كانط في صميمها تريد أن تتجاوز كل تجربة . وهذا الأذعاء في مجاوزة التجربة ، من وجهة نظر كانط أشد جرأة مما ظنه أغلب الميتافيزيقيين لا سيما العصر القديم . لأن التجربة في نهاية الأمر عند كانط هي نحن أنفسنا ، هي تمثلاتنا ، هي الأشياء كما تبدو لنا ، هي العالم الذاتي<sup>(٤٧)</sup> . إذ ان كانط يرى ان للتجربة دورها المهم في المعرفة ، فكانت هناك معرفة قبلية سابقة على التجربة ومعرفة بالتجربة ، اذن المعرفة تنشأ عن التجربة ولا تبدأ بها.

ومن هنا كان كتاب " نقد العقل الخالص " بحثاً في الميتافيزيقا ؛ لأنه بحث في نظرية المعرفة ، وفيه يحاول أن يبين فساد كلا التيارين : النزعة العقلية والنزعة التجريبية ، الأولى لتجاوزها لحدودها ، والثانية لقصورها . فالأولى تجاوزت حدود العقل وطاقاته فأدعت إمكان الوصول إلى إثبات كيانات لا يمكن بطبيعتها أن تكون موضوعات للتجربة مثل ( الله ، الحرية الإنسانية ، خلود النفس) وتلك هي الميتافيزيقا القطعية بكل معاني الكلمة : (( فالميتافيزيقا القطعية هي في صميمها ميتافيزيقا تريد أن تتجاوز كل تجربة. إننا في نظره نسكن جزيرة يكتنفها من جميع الجهات محيط لا حدود له تعوزنا فيه معالم الطريق. والميتافيزيقا تسبح في هذا المحيط مدعية أنها سالكة سبيلها))<sup>(٤٨)</sup> . أي أن التيار العقلي رأى أن الحقائق التي تتعلق بالطبيعة وما فوقها إنما تُدرك بالعقل وحده مستقلاً عن التجربة. وهذه نظرة دوجماتيكية رفضها كانط<sup>(٤٩)</sup> . ويبيّن في " نقد العقل المحض " أن محاولات استخدام العقل لإقامة حقائق ميتافيزيقية تؤدي دائماً إلى متناقضات مستحيلة ، ثم يدل على كيفية اكتسابنا للمعرفة عن العالم<sup>(٥٠)</sup> .

و يرى كانط أن أفلاطون كان يدرك أن قدرتنا على المعرفة بحاجة أسمى بكثير من الحاجة لأستعراض ظواهر معينة في إطار وحدة تأليفية من أجل الربط بينها على موضوع يمكن أن تهبه التجربة عاجزاً عن التوافق معها . لكن أن أراد العقل أن يمكننا من معرفة موضوعات من مرتبة عليا ليست حاضرة في التجربة ، فإنه يتجاوز أفكار (مثل الله و النفس ) وهي أفكار للعقل لا يمكن أن يطبق عليها أساليب البرهنة و التحليل التي تميز أستعماله العملي. و هنا يبين كانط التضليل الناجم عن العقل الميتافيزيقي ، و يُبرز شكلاً آخر من العقل هو (العقل العملي) ، و هو القدرة على أدراك قواعد العمل الأخلاقي ( و ليس القدرة على معرفة الموضوعات ) . و تفرض مسلمات العقل العملي نفسها على الضمير بأعتبارها أوامر قطعية لا شرطية ، فيكون العقل العملي مصدر موافق لمصير الإنسان و ليس مصدر للمعرفة. وبالتالي يمكن للأطروحات الميتافيزيقية أن تظهر من جديد ، و لكن فقط على أعتبارها شروط إمكان مُفترضة للقواعد الأخلاقية<sup>(٥١)</sup>.

لذا يأبى كانط ذلك الحدس العالي من المعرفة الذي يسلم به أفلاطون ، والذي يتيح لنا أن نتصل بموضوعات لا ممتدة ولا زمانية . فيرى أننا لا نملك هذه الملكة ، ولا يقتصر كانط على مجرد الإنكار ، فالحدس الحسي الذي يبدو وجوده بديهياً ، لم يسلم به كواقعة معطاة تسليمأبلاً تحفظ ، بل بالعكس رأى أنه لا بد له بمعنى ميتافيزيقي وبمعنى ترنسندنتالي أن يستنبط الحدس الأولاني للمكان والزمان . ذلك الحدس الذي ينبغي أن يكون سندا للحدس الحسي. وأساس هذا الاستنباط هو وجود الرياضة بأعتبارها علماً ضرورياً<sup>(٥٢)</sup>.

ويطالب كانط المشتغلين بالميتافيزيقا أن يتساءلوا في بادئ الأمر : هل الميتافيزيقا ممكنة أو لا ؟ ثم يطرح سؤالين آخرين : أن كانت الميتافيزيقا علماً ، فلماذا لم تلق استحساناً دائماً من الجميع ، مثل سائر العلوم الأخرى ؟ وان لم تكن كذلك ، فلماذا تُفاخر دائماً بذلك ، وتغري العقل الإنساني بالأمال التي يتعطش إليها دائماً و لا يحققها أبداً؟<sup>(٥٣)</sup>. حيث يرى كانط أنه منذ نشأت الميتافيزيقا لم يحدث ما يؤثر في

مصيرها بصورة قاطعة مثل هجوم ديفيد هيوم عليها . ويمكن القول أن نقطة الابتداء عند هيوم هي في ذاتها تصور ميتافيزيقي ذو أهمية ، ويقصد به كانط (علاقة العلة بالمعلول) . وقد أثبت هيوم بطريقة لا ترد بأنه يستحيل على العقل أن يفكر قبلياً وبواسطة التصورات في مثل هذه العلاقة ، لأنها تحتوي على ضرورة ؛ ولا يمكننا أن نتصور كيف يلزم لمجرد وجود شئ ، وجود شئ آخر بالضرورة وكيف يمكننا أن ندخل في العقل تصور مثل هذه العلاقة قبلياً. وظن العقل بأن هذا التصور هو من نتاجه ظن خاطئ ، لأن هذا التصور في الحقيقة هو نتاج مُهَجَّن من الخيال الذي أخصبته التجربة ، والذي أخضع بعض التمثيلات لقانون التداعي ، وبالتالي فقد اعتبر الضرورة الصادرة عنه ( العادة ) ضرورة موضوعية قائمة على المعرفة. وأيضاً من استنتاجات هيوم انه ليس للعقل ملكة قادرة على تصور هذه العلاقات ، ولا حتى بصفة عامة ، لأن تصوراتها لن تكون سوى مجرد أوهام ، وبالتالي فزعم العقل بأن هذه المعاني قبلية ما هي إلا تجارب مألوفة قد زُورَ ختمها ، وهذا يساوي قول أن الميتافيزيقا غير موجودة ولا سبيل إلى وجودها<sup>(٥٤)</sup>.

لقد أتفق كانط مع هيوم والتجريبيين في القول أن كل معرفة تبدأ من التجربة إلا أنه أضاف ملاحظة مهمة هي أنه من الواجب التمييز بين ما ينتج المعرفة بالفعل ، والصورة التي تتخذها تلك المعرفة . وبالتالي فرغم أن المعرفة تنشأ عن طريق التجربة ، فإنها لا تستمد منها وحدها. أي أن التجربة الحسية شرط ضروري للمعرفة ، ولكنها ليست شرطاً كافياً لها<sup>(٥٥)</sup>.

ان ما انتهى اليه هيوم ان تصورات العقل ليست صادرة عن العقل بل يستخلصها العقل من التجربة ، وبالتالي ليس العقل وحده المصدر للتصورات العقلية . والمعرفة ليست مستمدة فقط من التجربة أيضاً وأن كانت شرطاً لها .

إذن ((هل هناك نوع من المعرفة مستقل عن التجربة وعن جميع الأنطباع الحسية؟))<sup>(٥٦)</sup> هذا ما يتساءله كانط في هذا الموضوع. وتلك مسألة تحتاج على كل حال لفحص دقيق ، وهي لا تسمح بجواب جاهز عنها ، فإذا كان ثمة معرفة تستقل

عن التجربة ، وعن جميع انطباعاتنا الحسية ، فإننا نسميها بالمعرفة القبلية Apriori . ونفرق بينها وبين المعرفة التجريبية ذات المصادر البعدية A Posteriori أي أنها تستمدتها من التجربة<sup>(٥٧)</sup> .

أذن أن مصادر المعرفة الميتافيزيقية ، لا يمكن أن تكن تجريبية ، لا يمكن أستعارة مبادئها من التجربة ، لانه لا ينبغي لها ان تكن معرفة فيزيائية ، بل معرفة ميتافيزيقية تتجاوز حدود التجربة. بالتالي فالمعرفة الميتافيزيقية معرفة قبلية نابعة من الذهن الخالص . لكن هنا لن تتميز الميتافيزيقا بثئ عن الرياضيات وينبغي تسميتها اسم المعرفة الفلسفية المجردة<sup>(٥٨)</sup> .

أن نقد كانط ليس هدماً للميتافيزيقا ، بل لاثبات حدود المعرفة ، لأنه أراد أنقاذ الميتافيزيقا مما لحق بها من قطعية في النتائج بسبب المناهج المتبعة من قبل المذاهب الفلسفية.

لذا فإن نقده للميتافيزيقا لم يكن للميتافيزيقا من خارجها ، كما نقدها كل من الفلاسفة التحليليون و الماركسيون والمناطقة الوضعيون فيما بعد ، بل كان نقداً من داخل الميتافيزيقا ، مستهدفاً إحياءها لا تقويضها . فقد أستخدم النقد كجزء تمهيدي للميتافيزيقا الجديدة ، الميتافيزيقا بوصفها علماً<sup>(٥٩)</sup> .

نجد أن كانط لم ينكر الميتافيزيقا بالمرّة ، كما ظن الكثير ، بل هو دافع عن الميتافيزيقا المشروعة النابعة من طبيعة العقل ، دون أن تزعم لنفسها الحق في فرض مفاهيمها على التجربة. ولا شك أن الطبيعة نفسها هي التي وضعت فينا هذا الميل البشري للميتافيزيقا ، ويبدو أن أصل هذا النزوع هو رغبتنا الطبيعية في تحرير فكرنا من قيود التجربة ، وحدود الملاحظة البسيطة للطبيعة ، لأجل تنظيم أفكارنا على صورة نسق عقلي متكامل . ومن هنا فالعقل البشري الذي يعلم تمام العلم أنه من المتعذر لأي علم طبيعي أن يكشف لنا عن باطن الأشياء ، سرعان ما يجد نفسه وجهاً لوجه أمام الحدود النهائية لكل معرفة بشرية ، وبالتالي سرعان ما يتطلع لمعرفة المجهول الذي يمتد فيما وراء تلك الحدود . والميتافيزيقا هي تلك المعرفة

التصورية المحضة التي تنبعث من اصطدام العقل بحدوده الخاصة ، و أيمانه بإن التجربة لا يمكن أن تكون هي الكلمة الأخيرة لكل معرفة<sup>(١٠)</sup>.

أذن يتضح لنا أن كانط كان مهتماً بالميتافيزيقا منذ بداياته ، بل ويؤكد على أهميتها بالنسبة لنا ، فلا يمكن أن نتجاوزها ، وقد أنصب نقده حول منهجها ونتائجها ، التي اتخذت طابع الدوجماتيكية ، فأراد لها كانط أن تكون ذات منهج يرقى بها لمستوى النتائج الرياضية ، وأخرجها من ميدان العقل النظري ، الى ميدان العقل العملي ، وهذا ما سيأتي في الصفحات القادمة .

### رابعاً / ميتافيزيقا الاخلاق

ظهرت مع كانط من جديد مشكلة جديدة هي البحث في قيمة المعرفة الانسانية حدودها ومداهما والعلاقة بين الذات المفكرة والموضوع الخارجي.

حدد كانط الأسئلة الميتافيزيقية الجوهرية الثلاثة هي : ماذا يمكنني أن اعرف ؟ ماذا ينبغي عليّ فعله ؟ وماذا عساي أن أمل ؟ و نظرة على نمط هذه الأسئلة كافية لتعريف الميتافيزيقا ، وغالباً ما تُعرف الميتافيزيقا بإنها العلم بما هو ممكن . متميزاً من العلم بما هو قائم بالفعل. وقد نقول : هي العلم بأعم المبادئ المنصبة على الحقيقة الواقعية . ويتحقق العمل الجاد في مسائل الميتافيزيقا بالمسائل المنفردة المنفصلة . فلو أمكن توضيح هذه المسائل توضيحاً تاماً ، لبدأ على الحقيقة الحديث عن الميتافيزيقا من حيث أنها علم موحد<sup>(١١)</sup> . كما اراد لها كانط.

وفي الحديث عن المعرفة بوصفها علماً يجب تحديد الطابع المميز لها ، سواء كان هذا الطابع ناتجاً عن اختلاف موضوع أو مصادر أو جهات المعرفة ، أو من جميع هذه الأمور. ففي مصادر المعرفة الميتافيزيقية كما تبين فكانط يرى بأن الميتافيزيقا لا يمكن أن تكون تجريبية ، لأنها هي المعرفة القبليّة أو هي معرفة نابعة من الذهن الخالص. وأتفق كانط مع هيوم على أن الخبرات الواردة (أي الحسية) والفهم لا تعطينا سوى أحكام احتمالية مشروطة ومتغيرة وغير يقينية . لكنه وجد في العقل اليقين الذي ينشده . ورأى أن العقل نوعان ( عقل عملي ينبئنا عن طريق حدسنا الأخلاقي

بأحكام معصومة من الخطأ عما هو صواب وما هو خطأ في موقف بذاته ) ، و (عقل نظري يصدر بطريقة أو بأخرى أحكاماً صائبة لا تتأتى لنا في خلال عملية الحساب العادي) <sup>(٦٢)</sup>.

على الرغم مما يلف الرياضيات والميتافيزيقا من شبه من حيث إنها علم نظري ، ينصب على بعض المفاهيم أو التصورات ، إلا أن مفاهيم الرياضيات تنطبق على الحدس ، بينما حين يعمل العقل في مضمار الميتافيزيقا فإنه لا يكون إلا تلميذاً لنفسه ، وبالتالي فالميتافيزيقا مختلفة عن كل ما عداها من العلوم ، لأنها لا تكاد تعدو في دراستها مبادئ العقل وحدود أفعاله ، على نحو ما تحددها تلك المبادئ . وحين يعرف الميتافيزيقي أن مبادئ العقل هي مجرد مبادئ منظمة ، فإنه عندئذ لا يمكن أن يقع في الأخطاء التي أقرتها أصحاب الميتافيزيقا غير المشروعة <sup>(٦٣)</sup>. والميتافيزيقا كما يرى كانط أما أن تكون تحليلية (تستخلص التفكير أو الأستنتاج المتعلق بالكم والعدد) ، أو تجريبية (تفكير تجريبي) <sup>(٦٤)</sup>.

والآن هل الميتافيزيقا ممكنة ؟

يرى كانط أنه إذا وُجدت ميتافيزيقا يمكن أن تحتفظ بطابعها بوصفها علماً فهي الميتافيزيقا التي يجب تعلمها ويمكن كما يرى كانط أن يقنعنا بالحقيقة بطريقة لا تقبل الشك و الاعتراض ، وعلى نحو ثابت لا يتغير ؛ وحينها سيبدو السؤال الذي وضعه لا معنى له ، ولن يبقى أمامه غير السؤال الذي لا يهدف كانط من ورائه إلى إثبات وجود هذا العلم نفسه ، بل إلى إثبات مدى الفطنة وسعة البصيرة وهو ((كيف تكون الميتافيزيقا ممكنة ، وأي طريق يسلكه العقل من أجل الوصول إليها؟)) <sup>(٦٥)</sup>.

يقول كانط أنه في كل وقت كان هناك ميتافيزيقا تناقض الأخرى في أحكامها وبراهينها ، وبالتالي انتهت الميتافيزيقا بنفسها على أصلها بأن تكون علماً مصداقاً به على الدوام . وقد كانت المحاولات لإنشاء هذا العلم هي السبب في ظهور مذهب الشك مبكراً ، هذا المذهب الذي يكون فيه العقل راداً لمزاعم العقل نفسه ، نتيجة بأسه من أراض نفسه وتحقيق غاياته <sup>(٦٦)</sup>.

يرى كانط ان المبادئ التي تحيل تمثلات الحواس الى ظواهر هي أبعد ما تكون عن كونها مبادئ تجعل حقيقة التجربة مجرد مظهر ، أذن هي الوسيلة التي بها نتجنب الوهم المتعالي الذي يبعد الميتافيزيقا عن طريقها ، وهذا الوهم هو النظر إلى الظواهر التي هي مجرد تمثلات على أنها أشياء في ذاتها . فكانط يؤكد هنا انه طالما أن الظاهرة تستخدم في مجال التجربة فأنها ستظفر بالحقيقة ؛ ولكن عندما تتجاوز الظاهرة التجربة وتصبح مفارقة لها فلا نجد أمامنا إلا المظهر<sup>(٦٧)</sup> .

فميتافيزيقا كانط (الميتافيزيقا النقدية) هي مجموعة من المعارف المشتقة من العقل وحده ، أي من ملكة المعرفة القبليّة أو الأولى القائمة على التصورات ، دون الألتجاء إلى معطيات التجربة ، أو إلى حدوس الزمان والمكان . وبالتالي تتميز الميتافيزيقا عن علم النفس التجريبي و عن علم الطبيعة من حيث أنها تقوم على العق وحده ، و تتميز أيضاً عن علم الرياضيات من حيث أنها لا تستند إلى حدوس الزمان والمكان . وهي ليست صورية كالمنطق ، بل هي (مادية) من حيث أنها تُطبق على موضوعات محددة ، فتسمح لنا بأن نصوغ قبلياً شرط الوجود الظاهري لتلك الموضوعات<sup>(٦٨)</sup> .

إذن الميتافيزيقا كما يقول كانط : (( تتناول غير تصورات الطبيعة التي تنطبق في كل وقت على التجربة ، تصورات العقل المجردة التي لا يمكن أبداً أن تعطى لنا في أية تجربة ممكنة ، أي هي تتناول التصورات التي لا تكشف أية تجربة عن حقيقتها الموضوعية (نعني أنها ليست مجرد أوهام للخيال) ، كما أنها تتناول الأحكام التي لا تؤكد التجربة صدقها أو كذبها ؛ وفضلاً عن ذلك فإن هذا الجزء من الميتافيزيقا هو حقاً الجزء الذي يؤلف غايتها الذاتية وكل شئ عدا ذلك ليس إلا وسيلة لتحقيق هذه الغاية ؛ وهكذا فإن هذا العلم من أجل فائدته الخاصة في حاجة إلى أستنباط من هذا القبيل ))<sup>(٦٩)</sup> .

لذا تعتبر الميتافيزيقا في فلسفة كانط متضمنة لظواهر الإدراك الذي يكون قبلها (أي أولاً سابقاً على التجربة) وهو الذي يقابل الإدراك الذي يكون بعدياً أي يجيء أكتساباً بالتجربة<sup>(٧٠)</sup>.

خلاصة ميتافيزيقا كانط هي أنه بدون مفاهيم قبلية للمكان و للزمان تستحيل التجربة ، وفي هذه الناحية يكون المكان والزمان مشاهبين للمقولات<sup>(٧١)</sup>. ولما نجح كانط في حل المسألة التي أثارها هيوم ليس في حالة خاصة فقط ، بل في حالة ملكة العقل المجرد كلها ، فقد تقدم بثقة ولكن بخطأ بطيئة لتحديد كل نطاق العقل المجرد (حدوده ومضمونه) بصورة كاملة وفقاً لمبادئ عامة : ((هي التي تكون الميتافيزيقا في حاجة إليها من أجل بناء نسقها طبقاً لخطة صحيحة))<sup>(٧٢)</sup>.

لقد وضع كانط أسس ميتافيزيقا الظاهرات ( أي البحث عن العناصر الأولية المتضمنة في معرفة كل ظاهرة من حيث هي كذلك ) . ثم أقام ميتافيزيقا ثانية ، هي ميتافيزيقا الأخلاق أي ميتافيزيقا العمل ، أو نظام الشروط الأولية للتصرف الأخلاقي . إذن بدل الميتافيزيقا القطعية يحاول كانط أن يقيم ميتافيزيقا جديدة (نقدية)<sup>(٧٣)</sup>. إذن فالميتافيزيقا تنقسم ، إلى ميتافيزيقا الأستعمال النظري ، وميتافيزيقا الأستعمال العملي للعقل المحض ، وتكون بذلك اما ميتافيزيقا الطبيعة واما ميتافيزيقا الأخلاق. إذ تتضمن الأولى كل مبادئ العقل المحضة التي تدور على المعرفة النظرية لكل الأشياء ؛ وتتضمن الثانية المبادئ التي تعين قبلياً الفعل والترك وتجعلهما ضروريين . والحال إن الخلقية هي للأفعال الشرعية الوحيدة التي يمكن أن تستمد بشكل قبلي كلياً من مبادئ. وعليه فإن الأخلاق هي أصلاً الأخلاق المحضة حيث لا تؤسس على أي أنثربولوجيا ، وميتافيزيقا العقل الأعتباري هي إذن ما أعتدنا أن نسميه ميتافيزيقا بالمعنى الأضيق للفظ.<sup>(٧٤)</sup>

أذن يمكن التمييز بين قسمين للميتافيزيقا ، ميتافيزيقا الطبيعة و ميتافيزيقا الاخلاق . تختص ميتافيزيقا الطبيعة بالعقل النظري ، وتختص ميتافيزيقا الاخلاق بالعقل العملي . لكن ماهي فكرة الميتافيزيقا الاساسية ؟

يرى كانط في فكرة الميتافيزيقا الأساسية أنها هي التي تُظهر، بما هي معرفة قبلية، شَيْهًا معيَّنًا بالرياضة<sup>(٧٥)</sup>. وهذا الشبه يشير إلى قرابة بين العلمين فيما يخص الأصل القبلي، أما فيما يخص نمط المعرفة فالذي يحصل في أحدهما بناءً على مفاهيم، فإنه يقوم في الثاني فقط ببناء المفاهيم قبلياً. وكل معرفة قبلية محضة تشكل وحدة خاصة بفضل القدرة المعرفية الخاصة التي يقع فيها مقرّها حصراً: (( والميتافيزيقا هي الفلسفة التي يجب أن تعرض تلك المعرفة في هذه الوحدة النظامية))<sup>(٧٦)</sup>. والقسم الأعتباري أي ميتافيزيقا الطبيعة هو مايفحص كل شئ بمفاهيم قبلية من حيث هو كائن (لا من حيث يجب أن يكون)، وإذن ينقسم على الوجه التالي: الميتافيزيقا بالمعنى الحصري للفظ تقوم من:

أ. الفلسفة الترانسندنتالية – وتنظر فقط إلى الفاهمة وإلى العقل نفسه في نظام كل المفاهيم وكل المبادئ التي على صلة بموضوعات بعامة، من دون افتراض هذه الأشياء معطاة (أنطولوجيا).

ب. ومن فسيولوجيا العقل المحض – وتنظر إلى الطبيعة أي إلى مجمل الموضوعات المعطاة (سواء بالحواس أو بأي ضرب من الحدس) وهي على هذا النحو فسيولوجيا<sup>(٧٧)</sup>.

ويقول كانط أن الميتافيزيقا: (( هي إنجاز كل ثقافة للعقل البشري، إنجازاً لا غنى عنه، حتى بإهمال تأثيرها كعلم على بعض الغايات المتعينة. ذلك إنها ترى إلى العقل وفقاً لعناصره وشعاراته العليا التي يجب أن تكون في أساس إمكان بعض العلوم. وفي أساس أفعالها جميعاً. وأن تُستخدم بالأحرى، بوصفها مجرد اعتبار للأحتراز من الغلط أكثر مما تُستخدم لتوسيع المعرفة، فإن ذلك لا يبخر من قيمتها شيئاً، بل يُعطيها بالأحرى كرامة وتقديراً؛ لأنها بذلك ستكون الرقابة التي تؤمن النظام والوفاق العام، بل حسن حال الجمهورية العلمية، وتمنع أعمالها. الجريئة والخصبة، من أن تنحرف عن الغاية الرئيسية، السعادة الكلية))<sup>(٧٨)</sup>.

فالميتافيزيقا التي تريد أن تكون علماً هي تلك المستندة لنقد العقل الذي يحدد الحدود التي لا ينبغي للعقل أن يتجاوزها . والذي يخضع للنقد ، ما هنالك من تصورات قبلية يردها إلى مصادرها المختلفة وهي (الحساسة ، والذهن ، والعقل) <sup>(٧٩)</sup> .  
و أعتبر كانط أن تخلي فلاسفة عصره عن الميتافيزيقا هو عجز لهم عن فهم الدور الحقيقي الذي تقوم به الميتافيزيقا في حياتنا البشرية . ومادام التفسير الفيزيائي أو الطبيعي عاجزاً عن أرضاء العقل ، فسيبقى الميل الميتافيزيقي حقيقة واقعية لا غنى عنها <sup>(٨٠)</sup> .

أي ان موقف كانط وكما هو واضح ليس رفضاً للميتافيزيقا بل هو محاولة تقويمها، من خلال النقد ، وبيان سبب تخلي الفلاسفة عنها . ونقلها من ميدان العقل النظري ، الى ميدان العقل العملي . وهي مؤلفة من تصورات قبلية .  
ولما كانت الميتافيزيقا عند كانط (هي العلم الذي يتألف على نحو قبلي من التصورات الخالصة). وبالتالي يجب التمييز بين الميتافيزيقا وبين كل معرفة مستمدة من التجربة . والميتافيزيقا تعبر عن حاجة كامنة في العقل البشري . فيرى كانط أن هنالك مقابل الميتافيزيقا الدجماطيقية هناك ميتافيزيقا مشروعة لا تأتي عن الأستخدام المتعالي للعقل بل عن الأستخدام الباطن له ، (( أي تلك التي تحدد بالتصورات الخالصة الموضوعات التي تدخل في ميدان العيان الحسي، أو التي تتحقق بالحرية ولا تطمح للوصول لمعرفة الموضوعات التي تتجاوز حدود التجربة)) <sup>(٨١)</sup> .  
وهنا تحديداً كان التجديد في فلسفة كانط الأخلاقية. وفي تطوير رأيه عن الإنسان كأنه قوة مستقلة بذاتها فان كانط طور أفكارا جديدة حول الحرية وطبيعة الفعل الذي لازال تحت المناقشة. وان فكرته كذلك لها مضامين مهمة لحالات باقية حول تركيب ومحتوى الأخلاقية <sup>(٨٢)</sup> .

إذ يوجه كانط أهتمامه إلى حكمة الأخلاق بوجه خاص ، فإنه يحدد سؤاله بالشكل التالي: (( أليس من صواب الرأي أن يكون من أشد الأمور ضرورة إعداد فلسفة أخلاقية خالصة ، نقية نقاءً تاماً من كل ما يمكن أن يكون تجريبياً ومن كل ما

يتصل بعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا) بسبب ، ذلك أن ضرورة وجود مثل هذه الفلسفة أمر يتضح بذاته من الفكرة المعتادة التي لدينا عن الواجب وعن القوانين الأخلاقية<sup>(٨٣)</sup>.

والإجابة عن هذا السؤال كانت وراء عمله المهم جداً (تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق) إذ عُدَّ تفكير كانط الأخلاقي من أكثر المساهمات أهمية في الفلسفة الأخلاقية الحديثة ، وكان تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق النص الرئيسي المستعمل الذي يمثل علم الأخلاق الكانطي<sup>(٨٤)</sup>.

لذا كانت ميتافيزيقا الأخلاق ضرورة لا بد منها. ليس لدافع من دوافع التأمل المجرد (الذي يستهدف البحث في مصدر القواعد الأخلاقية الموجودة في عقلنا وجوداً قديماً) فحسب ، بل لأن الأخلاق ذاتها تتعرض لألوان من الفساد عديدة ، ما بقيت مفتقرة للمقياس والمعياري الأعلى الذي لا بد منه للحكم عليها حكماً صحيحاً . فكل ما ينبغي أن يكون خيراً من الناحية الأخلاقية لا يكفي فيه أن يكون مطابقاً للقانون الخلفي ، بل يجب أن يحدث من أجله ؛ وإلا فإن هذا التطابق من قبيل الصدفة وكان تطابقاً فاسداً. ذلك لأن القاعدة غير الأخلاقية أحياناً يتولد عنها أفعال مطابقة للقانون ، لكن في أغلب الأحيان لا تنتج غير أفعال منافية للقانون الخلفي<sup>(٨٥)</sup>.

أذن أبتكر كانط طريقة جديدة في التفكير بالأخلاق وفي أنفسنا بصفتنا كائنات أخلاقية. وأدرك أن كل المحاولات السابقة حول توضيح المبادئ الأخلاقية لم تكن صحيحة. ففي تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق يقدم كانط المبادئ الجوهرية لمختلف التصورات الأخلاقية<sup>(٨٦)</sup>.

وقد كتب كانط نقده للعقل تمهيداً لبناء ميتافيزيقا تقوم في المستقبل تخلص من أوزار الماضي وأخطائه ، فهو لم يُرد أن يقدم تفكيراً ميتافيزيقياً إيجابياً ، إنما أراد منه أداة تُعينه على كشف الطريق السوي للبحث الميتافيزيقي المنتج ؛ وهذا البحث الميتافيزيقي يدور حول ثلاثة مواضيع ( الله ، الحرية ، الخلود ). و استخدم كانط

التحليل لقضايا العلم الرياضي والطبيعي ، ليعود بعدئذ للبحث الميتافيزيقي ، من أجل أن يقيمه على نفس الأسس التي رآها في هذين العلمين<sup>(٨٧)</sup>.

وعلى الرغم من أن موضوعات الميتافيزيقا ( الله ، الحرية ، الخلود ) هي موضوعات لا يستغني الإنسان عن الحديث فيها ، إلا أنها خارجة عن حدود العقل النظري ، فإن جعلناها موضوع بحث نظري عقلي علمي ، وقعنا في متناقضات . أي أن الحديث في الموضوعات الميتافيزيقية الأنفة الذكر ، كما يرى كانط ممكنة ، لكن هذه الإمكانية ليست عن طريق العقل النظري ، لأنه له حدود لا يستطيع تجاوزها<sup>(٨٨)</sup>.

فأن القول بأن الميتافيزيقا تهدف إلى معرفة الأفكار التي تجاوز نطاق الحس والمحسوس ، وتقع في عالم ما فوق التجربة وما وراء الطبيعة ، لا يعني أن كانط أستبعد من مجالها معرفة الأشياء المحسوسة ، بل على العكس يرى أن الميتافيزيقا تشمل معرفة هذه الأشياء بوصفها جزءاً تمهيدياً لبلوغ أفكارها الرئيسية ، فالأنطولوجيا مثلاً بوصفها جزءاً من الميتافيزيقا ما هي إلا مذهب لجميع تصورات الذهن وجميع المبادئ ، طالما أن هذه التصورات والمبادئ تعطى للحس ، وطالما إنها تتعلق بموضوعات يمكن تجربتها<sup>(٨٩)</sup>.

ويرى كانط ان الميتافيزيقا : (( هي إنجاز كل ثقافة للعقل البشري ، إنجازاً لا غنى عنه ، حتى بإهمال تأثيرها كعلم على بعض الغايات المتعيّنة. ذلك إنها ترى إلى العقل وفقاً لعناصره وشعاراته العليا التي يجب أن تكون في أساس إمكان بعض العلوم ، وفي أساس أفعالها جميعاً. وأن تُستخدم بالأحرى ، بوصفها مجرد اعتبار للأحتراز من الغلط أكثر مما تُستخدم لتوسيع المعرفة ، فإن ذلك لا يبغس من قيمتها شيئاً ، بل يُعطيها بالأحرى كرامة وتقديراً ؛ لأنها بذلك ستكون الرقابة التي تؤمن النظام والوفاق العام ، بل حسن حال الجمهورية العلمية ، وتمنع أعمالها . الجريئة والخصبة ، من أن تنحرف عن الغاية الرئيسية ، السعادة الكلية ))<sup>(٩٠)</sup>.

إذن فإن ما جاء في نقد العقل الخالص ما هو إلا إعادة بناء لميتافيزيقا الأخلاق بوصفها علماً ، وهو العلم الذي يتحدد من خلاله مفهوم الأخلاقية عند كانط من

خلال بنية المعنى الأنطولوجي لهذه الميتافيزيقا المؤسسة أصلاً على الممارسة التركيبية للأحكام .

وقد أنشأ كانط لأول مرة نوعاً جديداً من الفلسفة. أطلق عليه أسم الفلسفة الترانسندنتالية (النقدية) هدفها أن تستخدم تمهيداً للميتافيزيقا ، وأن تحذر الميتافيزيقي من الوقوع في أغاليط المنهج . وهذه الفلسفة في جوهرها ، أشبه ما تكون بمناهج بحث للميتافيزيقا. فكانط يرى أنه متى سيطر الفيلسوف على الفلسفة التمهيديّة وأتقنها ، فإنه يستطيع أن يعود إلى هدفه الأصلي ألا وهو التأمل الميتافيزيقي ، وبالتالي يستطيع الميتافيزيقا أن تتقدم بنفس الخطى الثابتة التي تتقدم بها الرياضة وعلم الطبيعة<sup>(٩١)</sup>.

وهنا تقوم مهمة النقد على اقتراح الحدود الجديدة لماهية العقل الخالص ، وللرياضيات في ذات الوقت ، فقد استأنفت كل محاولات التفكير في الميتافيزيقا ، ولم تحصل على معطيات تدعم شرعيّتها ، فالميتافيزيقا منذ أرسطو ، لم تتمكن من تجديد آلياتها ومفاهيمها أو بلورة موضوعاتها ورهانات أسئلتها ، وهذا ما حث كانط لتعيين مشروعه النقدي ، والبحث في الشروط القبلية لإمكانية الموضوعات (كمنهج يتخطى إدعاءات الميتافيزيقا التقليدية). فكانط يمارس النقد لبحث عن تأسيس علم يخص (العقل الخالص) ، فقد بحث عن الإمكان الذي يضمن قيام هذا العلم ، فنقد العقل الخالص هو إعادة تأسيس للميتافيزيقا كعلم. وتعد ممارسة الأحكام التركيبية الأساس الأنطولوجي لهذه الميتافيزيقا المقبلة<sup>(٩٢)</sup>.

والميتافيزيقا التي ينشدها كانط في هذا المقام هي ميتافيزيقا الاخلاق التي يمكن مناقشتها في ميدان العقل العملي ، والتي بإمكانها ان تصبح بديلاً للميتافيزيقا التقليدية التي يحاول كانط تقويم دعائمها ، وميتافيزيقا الاخلاق الكانطية مقياسها الارادة التي لا تخضع لشيء غير ذاتها ، من خلال الواجب الاخلاقي الذي يُعد الدعامة الاساسية لها.

أذ يرى كانط ان لا وجود لشيء في هذا العالم يمكن عده خيراً على الإطلاق غير الإرادة الخيرة . الإرادة الخيرة التي توجه الوجدان نحو غايات وأهداف عامة وتصحح مبدأ السلوك كله ، ففي الشرط الذي لا غنى عنه ليكون الإنسان خليقاً بالسعادة. والإرادة الخيرة لا تكون خيرة بما تُحدثه من أثر أو ما تحزره من نجاح ، ولا بصلاحياتها للوصول لهذا الهدف أو ذلك ، بل تكون خيرة عن طريق فعل الإرادة وحده ؛ أي خيرة في ذاتها<sup>(٩٣)</sup> .

فمقياس الأخلاق عند كانط هو ذاتية الإرادة أي ( قدرة الإرادة على أن تكون قانوناً لنفسها). فخضوع الإرادة لغيرها يمثل اللاأخلاقية بنظر كانط . إذن القانون الداخلي (قانون الإرادة الذاتية) هو قانون يحتمه العقل العملي ، ويصادف بلا شك عقبات في نفوسنا بسبب طبيعتنا الحسية الظاهرية التي لا يمكن أبداً أن تكون عقلاً خالصاً ، لذلك أطلق عليه كانط أسم (الأمر الحتمي<sup>(\*)</sup>)<sup>(٩٤)</sup> .

وتلك هي نظرة جديدة بدأت مع كانط ترى أن القانون أو الواجب والألتزام هو دعامة الأخلاق كلها، فقد حاول أن يظهر أن قوانين العلم هي قوانين مفروضة من جانب العقل على موضوعات الإدراك الحسي ، ويمكن معرفة هذه القوانين بصورة يقينية خلال التأمل في بنية المعرفة الأولية. وطبق كانط نفس التحليل في نقد العقل العملي في مجال الأخلاق وبذلك وضع نوعاً من الأخلاق على القوانين الأولية التي ينتظم بها الفعل عن طريق العقل العملي . وفي تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق قدم محاولة لتوضيح الاختلاف بين المبادئ الأخلاقية وقوانين الطبيعة . ولتفسير هذا الاختلاف ميز كانط بين مجالين للمعرفة يتعلقان بموضوعين متميزين (العلم الطبيعي والاخلاق) والعلم الطبيعي يضع قوانين الطبيعة التي يفرضها العقل على الإدراك الحسي . أما الاخلاق فتوضح قوانين (الحرية) التي يفرضها الكائن العاقل على أفعاله ويتوقع من الكائنات العاقلة الأخرى التعرف عليها واطاعتها . فالإنسان بمقدار ما يكون أخلاقياً يكون عاقلاً وبالتالي حراً ، والعكس حين لا يكون عقلاً

اخلاقياً ، فإنه يكون عبداً لرغباته الطبيعية. فثواب الفضيلة لا يكون في السعادة، بل في الكرامة والحرية<sup>(٩٥)</sup>.

أن ما يكون الإرادة الخيرة ليس الأستعداد لبلوغ هذا الهدف أو ذاك ولا النجاح في أداء فعل ما ، بل الإرادة نفسها ، أي إنها تستمد قيمتها من أنجاز الفعل والمبدأ الذي ألهم هذا الفعل ، وليس من نتيجة الفعل<sup>(٩٦)</sup> . فالإرادة الخيرة هي المبدأ الأخلاقي الذي يمكن أن نعده الدعامة الأساسية لكل سلوك أخلاقي. فحسب كانط أن الإرادة الخيرة هي الشئ الوحيد الذي يمكن أن نعده خيراً على الإطلاق. وليس بما يترتب عليها من نتائج أو بما تحدثه من آثار ، بل لأنها تعمل بمقتضى الواجب<sup>(٩٧)</sup> . فالواجب إذن هو: ((ضرورة أداء الفعل إحتراماً للقانون))<sup>(٩٨)</sup> كما يُعرفه كانط.

إذن يميز كانط بين الفعل الأخلاقي والفعل الذي يصدر عن ميل مباشر مثل التعاطف الوجداني أو الشعور بالأريحية ، فإن كان الفعل صدر عن ميل أو هوى حتى و أن جاء متفقاً مع الواجب ومستحقاً للثناء ، فإنه يخلو من كل صبغة أخلاقية ، وهذا عكس الافعال الصادرة عن مبدأ الواجب ، فهي وحدها تستحق صفة الأخلاقية . وأيضاً ميز بين الفعل الخلقي والفعل الذي تحكمه القوانين والتشريعات<sup>(٩٩)</sup> .

فالقانون الأخلاقي أو قانون الإرادة قانون قبلي هو أساس محدد للفعل ووفقاً لهذا القانون فالفعل يبدو محدداً بالعقل العملي المجرد ، وهو مستقل عن رغباتنا الطبيعية ، و لا يكون الموضوع هو الدافع للفعل ، بل قانون الأرادة أي القانون الأخلاقي هو الدافع ، وذلك لأن الأمكانية الأخلاقية للفعل لها أسبقية . وإنَّ أساس القيمة الأخلاقية للفعل أن يكون القانون الأخلاقي هو المحدد مباشرة للإرادة ، لكن أن كان تحديد الإرادة يتم وفقاً لوسائل الشعور ، فالفعل ليس أخلاقياً ، فالدافع الأخلاقي للإرادة الإنسانية ، إرادة كل موجود عاقل لا يمكن أن يكون شيئاً آخر أكثر من القانون الأخلاقي . فالقانون الأخلاقي هو صورة السببية العقلية أو شكل من الحرية ، وفي نفس الوقت هو موضوع الاحترام ، فهو أمر أخلاقي يجعل الفرد يتخلى

عن جميع ميوله ورغباته أمامه . وقيمة فعل الاحترام الأخلاقية تمثل القانون ذاته و هذا لا يكون بالطبع إلا عند الكائن العاقل وحده<sup>(١٠٠)</sup>.

يرى كانط أن الاخلاقية يجب أن تكون الشئ الاعلى والاقرب في آن واحد ، وان الناس جميعاً يجب ان يكونوا متساوين امام الأخلاق. ولما كان القانون الاخلاقي كلياً فيجب ان يكون في الوقت نفسه متصوراً على انه ملزم على التدقيق . أي مفروض من نفسه وبمعزل عن كل غاية مادية يراد تحقيقها<sup>(١٠١)</sup>.

أن الأخلاق الكانطية مستقلة عن اللاهوت والتدين ، وأساسها هو العقل العملي ، ولا تنتج إلا عن إرادة حرة (متحررة من أي مؤثر خارجي) ، والواجب مستقل عن كل غرض نفعي ، وبالتالي أحتقار الأخلاق النفعية التي تبحث عن السعادة<sup>(١٠٢)</sup>.

والقانون الأخلاقي ، أو قانون الحرية ، هو القانون الذي يقول أن الفاعل الاخلاقي يتصرف أخلاقياً إذا سيطر العقل على كل ميوله . فإن كان هذا قانوناً ، فيجب ألا يكون له أستثناء مهما تكن الظروف ؛ كما أنه لا يمكن أن يكون صادقاً بالنسبة إلى أناس دون أناس ، بل يجب أن يصدق على الجميع على السواء<sup>(١٠٣)</sup>.

لما كان الخضوع للقانون الأخلاقي ينتج عن الإرادة العاقلة بنظر كانط ، فهذا يتضمن وجود شرط أساسي هو (الحرية) . وهذه الحرية لا تتصل بنطاق التجربة ولا بنطاق العالم الذي يسمو على الحس ، بل تتصل بالعقل<sup>(١٠٤)</sup>.

أن التجديد الذي أتت به فلسفة كانط الأخلاقية ، هو أنه طور أفكاراً جديدة حول الحرية وطبيعة الفعل . بل أن أحد مضامين الاخلاق الكانطية إنها تعني أن لا مبدأ لسعادة الإنسان يمكن أن يكون أساساً للأخلاقية أو يبين هدفها . أن مذهب المنفعة هو اللقب الأكثر أنطباقاً بصورة مشتركة على وجهات النظر التي تجعل السعادة مركزاً للأخلاقية. وعليه كانت الكانطية معارضة لكل تلك الأفكار أو وجهات النظر<sup>(١٠٥)</sup>.

ومن أجل توضيح طبيعة الإرادة الخيرة أستعان كانط بفكرة الواجب . لأن الإرادة التي تعمل وفقاً للواجب هي إرادة خيرة . وليس بالضرورة أن الإرادة الخيرة هي التي تعمل وفقاً للواجب. لأن الإرادة الخيرة الكاملة لا تعمل من أجل أداء الواجب ، ففي

فكرة الواجب فكرة ما ينبغي التغلب عليه من ميول ورغبات . لكن الإرادة الخيرة الكاملة تعمل من تلقاء نفسها ولنفسها ، فمثلاً أن الله ذو إرادة خيرة كاملة ، لكنه لا يفعل الخير أداءً للواجب ؛ أما الإنسان فإرادته الخيرة ليست كاملة بل تعمل أداءً للواجب . إذن الإرادة الإنسانية الخيرة هي تلك التي تعمل وفقاً للواجب<sup>(١٠٦)</sup> .

فالسلك لا يكون أخلاقياً إلا إذا أنبعث عن الواجب أو عن الأحرار للقانون الأخلاقي في ذاته. وبالتالي فالخضوع للتقاليد أو العادات ولتجارب الماضي مهما بلغ سموها ، لا يضي على السلوك صفة الخلقية. وحينها لا يمكن أن تصدر الأخلاق أو تستمد من التبعية (للسلطة)<sup>(١٠٧)</sup> .

ومعروف أن الأوامر الأخلاقية كما أوردها كانط في تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق هي ثلاثة أوامر ، تلخص قيمتها ، وتُعد كل واحدة منها قاعدة أخلاقية وهي :

١. أفعَل كما لو كان على مسلمة فعلك أن ترتفع عن طريق إرادتك إلى قانون عام.  
٢. أفعَل الفعل بحيث تعامل الإنسانية في شخصك وفي شخص كل إنسان سواك بوصفها دائماً وفي نفس الوقت غاية في ذاتها ، ولا تعاملها أبداً كما لو كانت مجرد وسيلة.

٣. أفعَل بحسب المسلمة التي يمكنها في نفس الوقت أن تجعل من نفسها قانوناً عاماً<sup>(١٠٨)</sup> .

إذن مذهب الواجب يتلخص في أن الواجب يتطلب من الفاعل أن يتجرد من كل غرض ذاتي، ومن كل سعي وراء لذة أو متعة مباشرة . فهذا القانون يتطلب منا شيئاً واحداً، هو أن نحترم ذاتية الأفراد الآخرين ، ونتذكر دائماً أن لهم كرامة عليها كما نحرص على كرامتنا<sup>(١٠٩)</sup> . فالواجب لا يطلب من أجل منفعة أو بلوغ سعادة ، بل يطلب لذاته ، فليست الأخلاق هي المذهب، الذي يعلمنا كيف نكون سعداء ، بل هي المذهب الذي يعلمنا كيف نكون جديرين بالسعادة<sup>(١١٠)</sup> .

وعليه فإن ميتافيزيقا الأخلاق التي أرادها كانط هي المعرفة القبلية بموضوع ما ، عن طريق التصورات المحضة . إنها المعرفة القادرة على تجاوز الشكلية المنطقية

البحث ، والتجريبية البحث ، والتي تستطيع بواسطة العقل وحده أن تحدد موضوعها . فتميز ميتافيزيقا الأخلاق عن ميتافيزيقا الطبيعة كون الأولى تتناول قوانين ما يجب أن يكون ، والثانية تتناول قوانين ما هو كائن<sup>(١١١)</sup> . وبالتالي يمكن القول ان ميتافيزيقا الاخلاق التي وضع كانط أسسها يمكن أن تحل بدلاً عن الميتافيزيقا القطعية (الدوجماتيقية) التي كانت سائدة حتى عصره ، وأن الميتافيزيقا تشكل مكانة مهمة في فلسفته ، وان نقده لها كان من اجل النهوض بها ، وايضاً نقد معاصريه ممن عزفوا عن الميتافيزيقا ووصف عزوفهم بالعجز عن فهم المكانة الحقيقية والمهمة للميتافيزيقا في الحياة الانسانية . وميز بين ميتافيزيقا الطبيعة وميتافيزيقا الاخلاق.

### الخاتمة

بعد محاولة بيان مكانة ميتافيزيقا الاخلاق لدى كانط ، ومحاولة التمييز بين الميتافيزيقا الدوجماتيقية والميتافيزيقا الكانطية ، من خلال النقد الكانطقي للميتافيزيقا التقليدية يمكن أن نميز بعض النقاط الاساسية في هذا البحث منها :

١. اهتمام كانط بمبحث الميتافيزيقا لم يأت متأخراً ، بل منذ بداياته الفكرية الاولى كانت له دراسات خاصة بهذا المبحث ، وكانت تبدو عليه الاصلالة في التفكير ، وقد نضجت هذه الافكار وبرزت بوضوح في كتبه النقدية ، وكتبه في ميدان الميتافيزيقا.
٢. ان الميتافيزيقا قبل كانط أتخذت طابع القطعية ، ليس فيما توصلت إليه من نتائج فقط، بل وحتى في المناهج الكلاسيكية المستخدمة التي لم ترق بالميتافيزيقا الى مستوى العلوم الاخرى .
٣. يمثل النقد عند كانط محاولة إعادة بناء صرح الميتافيزيقا على أسس رصينة من خلال ألتماسه طريقة للبحث تجعل من الميتافيزيقا علما على غرار علمي الطبيعة والرياضة .

٤. المعرفة القبلية عند كانط ضرورية وبدونها لا يمكن أدراك الأشياء ، فلا نستقي معرفتنا من الخارج وحده و لا من العقل وحده. فالمعارف العقلية القبلية تسبق معطيات الحس سبقاً منطقياً لا حسيّاً.
٥. يمكن التمييز بين الميتافيزيقا وبين كل معرفة مستمدة من التجربة ، وذلك لان الميتافيزيقا عند كانط (هي العلم الذ يتألف على نحو قبلي من التصورات الخالصة) التي تدخل في ميدان العيان الحسي. فالمعرفة عنده تبدأ بالتجربة لكن لا تنشأ عنها، لان شرط المعرفة البعدية التي تأتي بعد التجربة يكون ماثل في المعرفة القبلية.
٦. يقدم كانط مبادئ جوهرية لمختلف التصورات الاخلاقية ، من خلال أبتكاره طريقة جديد في التفكير الاخلاقي وفي أنفسنا كوننا كائنات اخلاقية . ويرى بأن الالتزام الخلقي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالشعور بالحرية.
٧. ميز كانط بين الفعل الاخلاقي ، والفعل الصادر عن الميول المباشرة الذي يخلو من الصبغة الاخلاقية ، فالأفعال الصادرة عن الواجب فقط تستحق صفة الاخلاقية .
٨. يُعد كتاب تأسيس ميتافيزيقا الاخلاق محاولة للبحث عن المبدأ الاعلى للأخلاق ، وتثبيت دعائمه ، كما يقول كانط ، وهذه المحاولة تكفي لأن تكون عملاً متكاملًا يمكن الفصل بينه وبين كل مبحث اخر في الاخلاق.
٩. أن ميتافيزيقا الاخلاق الكانطية وحدها المعرفة التي تستطيع تجاوز الشكلية المنطقية البحث والتجريبية البحث ، وبالعقل وحده تحدد موضوعها ، وبالتالي تتناول قوانين ما يجب ان يكون عكس ميتافيزيقا الطبيعة التي تتناول ما هو كائن.

**الهوامش**

- (١) د. توفيق الطويل ، أسس الفلسفة ، مكتبة النهضة المصرية ، إعادة الطبعة الأولى ، ٢٠١٠ ، ص ٨٢ .
- (٢) وليم جيمس ، بعض مشكلات الفلسفة ، ترجمة د. محمد فتحي الشنيطي ، مراجعة د. زكي نجيب محمود ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، ص ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ .
- (٣) أ.د. امام عبد الفتاح امام ، مدخل الى الميتافيزيقا ، نهضة مصر للطباعة ، ط ٢ ، ٢٠٠٧ ، ص ٢٦ .
- (٤) وليم جيمس ، بعض مشكلات الفلسفة ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٧ ، ٣٨ .
- (٥) امام عبد الفتاح امام ، مدخل إلى الميتافيزيقا ، مصدر سبق ذكره ، ص ٩٥ ، ٩٦ .
- (٦) المصدر السابق ، ص ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٢ .
- (٧) د. سامية عبد الرحمن ، الميتافيزيقا بين الرفض والتأييد ، مصدر سبق ذكره ، ص ٩٣ .
- (٨) امام عبد الفتاح امام ، مدخل الى الميتافيزيقا ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٠٦ .
- (٩) د. محمد توفيق الضوي ، دراسات في الميتافيزيقا ، دار الثقافة العلمية - الاسكندرية ، ص ٢٩ ، ٣٣ .
- (١٠) أميرة حلمي مطر ، الفلسفة اليونانية ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٥٩ .
- (١١) أ.د. امام عبدالفتاح امام ، مدخل الى الميتافيزيقا ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٠٩ ، ١١١ .
- (١٢) المصدر السابق ، ص ١١٥ .
- (١٣) د. سامية عبد الرحمن ، الميتافيزيقا بين الرفض والتأييد ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٠١ .
- (١٤) أ.د. امام عبدالفتاح امام ، مدخل الى الميتافيزيقا ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٢٩ ، ١٣١ .
- (١٥) د. سامية عبد الرحمن ، الميتافيزيقا بين الرفض والتأييد ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٠٣ .

- (١٦) د. امام عبدالفتاح امام ، مدخل الى الميتافيزيقا ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٣٩ .
- (١٧) المصدر السابق ، ص ١١٧ .
- (١٨) هنتر ميد ، الفلسفة أنواعها ومشكلاتها ، ترجمة د. فؤاد زكريا ، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ص ٢١٤ .
- (١٩) د. سامية عبد الرحمن ، الميتافيزيقا بين الرفض والتأييد ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ .
- (٢٠) د. توفيق الطويل ، أسس الفلسفة ، مصدر سبق ذكره ، ص ٩٤ .
- (٢١) د. سامية عبد الرحمن ، الميتافيزيقا بين الرفض والتأييد ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٢٦ ، ١٢٨ .
- (٢٢) د. محمد توفيق الضوي ، دراسات في الميتافيزيقا ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٦ .
- (23) **Donald Rutherford ,The Cambridge Companion To Early Modern Philosophy , P.103 .**
- (٢٤) وليم كلي رايت ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، ترجمة محمود السيد أحمد ، مراجعة إمام عبد الفتاح إمام ، التنوير، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ٢٠١٠ ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .
- (٢٥) كريستوفر وونت ، أقدم لك كانط ، ص ٣٨ .
- (٢٦) المصدر السابق ، ص ٥٥ .
- (٢٧) وليم كلي رايت ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٥٧ .
- (٢٨) المصدر السابق ، ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ .
- (٢٩) أوفي شولتز ، كانط ، مصدر سبق ذكره ، ص ٩٤ .
- (٣٠) المصدر السابق ، ص ٩٥ ، ٩٦ .
- (٣١) أوفي شولتز ، كانط ، مصدر سابق ، ص ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ .
- (٣٢) د. زكريا ابراهيم ، كانت او الفلسفة النقدية ، سلسلة عبقریات فلسفية - ١ - ، مكتبة مصر - دار مصر للطباعة ، ص ٣١ ، ٣٢ .
- (٣٣) المصدر السابق ، ص ٣٣ .

(٣٤) نقلها عن الانكليزية فؤاد كامل ، جلال العشري ، عبدالرشيد الصادق ، الموسوعة الفلسفية المختصرة ، مراجعة وأشرف زكي نجيب محمود ، دار القلم ، بيروت - لبنان ، ص ٣٣٠ ، ٣٣١ .

(٣٥) أمانويل كانت ، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق ، من مقدمة المترجم ، ص ٥ ، ٦ .

(٣٦) برتراند رسل ، تاريخ الفلسفة الغربية ، الكتاب الثالث ، الفلسفة الحديثة ، ترجمة محمد فتحي الشنيطي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧ ، ص ٣٢٣ .

(٣٧) عمانويل كانط ، نقد العقل المحض ، ترجمة موسى وهبة ، مشروع مطاع الصفدي ، مركز الانماء القومي ، رأس بيروت - لبنان ، ١٩٨٨ ، من مقدمة المترجم ، ص ١٩ .

(٣٨) عمانوئيل كنط ، نقد العقل المحض ، مصدر سبق ذكره ، من مقدمة المترجم ، ص ١٩  
**(39) Immanuel Kant , The Metaphysics Of Morals , Introduction , and notes By Mary Gergor , San Diego State University , Cambridge University press , 1991 , printed in the USA .**

(٤٠) إمانويل كنت ، مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تصير علماً ، ترجمة د. نازلي إسماعيل حسين ، مراجعة د. عبد الرحمن بدوي ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر - القاهرة ، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م ، ص ٢٥

(٤١) أميل بوترو ، فلسفة كانط ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٦٦ .

(42) **Eilert Sundt – Ohisen , Kant And The Epistemology Of Metaphysics , King Of College London , P. 12 , 13 .**

(٤٣) أ.د. إمام عبد الفتاح إمام ، مدخل إلى الميتافيزيقا ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٦٦ .

(٤٤) المصدر السابق ، ص ١٦٦ .

(٤٥) د. سامية عبد الرحمن ، الميتافيزيقا بين الرفض والتأييد ، مصدر سبق ذكره ، ص ٦٥ .

(٤٦) عمانوئيل كنط ، نقد العقل المحض ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٦ .

(٤٧) أميل بوترو ، فلسفة كانط ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٤٨ .

(٤٨) المصدر السابق ، ص ١٦٦ .

(٤٩) د. سامية عبد الرحمن ، الميتافيزيقا بين الرفض والتأييد ، مصدر سبق ذكره ، ص ٦٧ .

- (٥٠) ديف روبنسون ، جودي جروفز ، أقدم لك الفلسفة ، ترجمة إمام عبدالفتاح إمام ، المجلس الاعلى للثقافة ، ٢٠٠١ ، ص ٧٨ .
- (٥١) جيل جاستون جارانجي ، العقل ، تعريب محمود بن جماعة ، سلسلة أضواء ، دار محمد علي للنشر - تونس ، ط ١ ، ٢٠٠٤ ، ص ٢٣ .
- (٥٢) اميل بوترو ، فلسفة كانط ، مصدر سبق ذكره ، ١٦٦ ، ١٦٧ .
- (٥٣) إمانويل كنت ، مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تصير علماً ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٢ .
- (٥٤) المصدر السابق ، ص ٤٤ .
- (٥٥) برتراند رسل ، حكمة الغرب ، ترجمة فؤاد زكريا ، ج ٢ ، الفلسفة الحديثة والمعاصرة ، سلسلة عالم المعرفة - ٧٢ ، ١٩٨٣ ، ص ١١٨ ، ١١٩ .
- (٥٦) عمانوئيل كنت ، نقد العقل المحض ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٥ .
- (٥٧) أ.د. إمام عبد الفتاح إمام ، مدخل إلى الميتافيزيقا ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٦٧ .
- (٥٨) إمانويل كنت ، مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن ان تصير علماً ، مصدر سبق ذكره ، ص ٥٣ ، ٥٤ .
- (٥٩) د. حسين علي ، الأسس الميتافيزيقية للعلم ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٢ .
- (٦٠) زكريا ابراهيم ، كانت او الفلسفة النقدية ، ص ١١٦ .
- (٦١) وليم جيمس ، بعض مشكلات الفلسفة ، ترجمة د. محمد فتحي الشنيطي ، مراجعة د. زكي نجيب محمود ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، ص ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ .
- (٦٢) كرين برينتون ، تشكيل العقل الحديث ، ترجمة شوقي جلال ، دار العين للنشر ، ٢٠٠٤ ، ص ١٦٨ .
- (٦٣) زكريا ابراهيم ، كانت أو الفلسفة النقدية ، مصدر سبق ذكره ، ص ١١٨ .
- (٦٤) Eilert Sundt – Ohisen , Kant And The Epistemology Of Metaphysics , Ipad , P. 10.
- (٦٥) إمانويل كنت ، مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تصير علماً ، مصدر سبق ذكره ، ص ٦١ .

- (٦٦) المصدر السابق ، ص ٦٢ .
- (٦٧) إمانويل كنت ، مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تصير علماً ، مصدر سبق ذكره ، ص ٩٢ .
- (٦٨) د. حسين علي ، الأسس الميتافيزيقية للعلم ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٧ .
- (٦٩) إمانويل كنت ، مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تصير علماً ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٤٧ .
- (٧٠) د. توفيق الطويل ، أسس الفلسفة ، مصدر سبق ذكره ، ص ٨٣ .
- (٧١) برتراند رسل ، حكمة الغرب ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٢٢ .
- (٧٢) إمانويل كنت ، مقدمة لكل ميتافيزيقا ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٨ ، ٤٩ .
- (٧٣) أميل بوترو ، فلسفة كانط ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٤٨ .
- (٧٤) عمانوئيل كنط ، نقد العقل المحض ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٠١ .
- (٧٥) المصدر نفسه ، ص ٤٠٢ .
- (٧٦) المصدر نفسه ، ص ٤٠٢ .
- (٧٧) المصدر نفسه ، ص ٤٠٢ ، ٤٠٣ .
- (٧٨) المصدر نفسه ، ص ٤٠٥ .
- (٧٩) عبدالرحمن بدوي ، الأخلاق عند كنت ، وكالة المطبوعات - الكويت ، ١٩٧٩ ، ص ٢٦ .
- (٨٠) زكريا ابراهيم ، كانت او الفلسفة النقدية ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٢٢ .
- (٨١) أمانويل كانت ، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق ، مصدر سبق ذكره ، هامش المترجم رقم (٥) ص ٢٢-٢٣ .
- (82) **Immanuel Kant, Groundwork For The Metaphysics Of Morals , Ipad , P. 88**
- (83) أمانويل كانت ، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٥ .
- (84) **Immanuel Kant, Groundwork For The Metaphysics Of Morals , Ipad , P. 83**
- (85) أمانويل كانت ، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٧ .
- (86) **Immanuel Kant, Groundwork For The Metaphysics Of Morals , Ipad , P. 83 .**

- (٨٧) د. زكي نجيب محمود ، موقف من الميتافيزيقا ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٧ ، ٤٨ .
- (٨٨) المصدر السابق ، ص ٥٠ .
- (٨٩) د. محمود رجب ، الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين ، ط ٢ ، دار المعارف - القاهرة ، ١٩٨٦ ، ص ٢٢ .
- (٩٠) عمانوئيل كنط ، نقد العقل المحض ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٠٥ .
- (٩١) د. محمود رجب ، الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٣ .
- (٩٢) د. علي الحبيب الفروي ، مارتن هيدجر (نقد العقل الميتافيزيقي) ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ .
- (٩٣) امانويل كانت ، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٧ - ٤٠ .
- (\*) بهذه التسمية يعارض كانط أصحاب مذهب السعادة ، لأنهم يتكلمون عن أوامر احتمالية ، حسب تعبير كانط ، أي أوامر مرتبطة بتحقيق هدف معين . ( د. السيد محمد البدوي ، الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع ، دار المعرفة الجامعية - مصر ، ٢٠٠٠ ، ص ٩٧ ) .
- (٩٤) د. السيد محمد البدوي . الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع ، دار المعرفة الجامعية - مصر ، ٢٠٠٠ ، ص ٩٧ .
- (٩٥) المصدر نفسه ، ص ١٥٥ ، ١٥٦ .
- (٩٦) عبدالرحمن بدوي ، الأخلاق عند كنت ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٢ .
- (٩٧) أمل مبروك ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٨٩ .
- (٩٨) امانويل كانت ، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق ، مصدر سبق ذكره ، ص ٥١ .
- (٩٩) د. محمد مهران رشوان ، تطور الفكر الأخلاقي في الفلسفة الغربية ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٦١ .
- (١٠٠) فريال حسن خليفة ، الدين والسلام عند كانط ، مصر العربية للنشر والتوزيع - القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠١ ، ص ٦٨ .
- (١٠١) أميل بوترو ، فلسفة كانط ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٠٣ .
- (١٠٢) د. السيد محمد بدوي ، الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٠٠ .

- (١٠٣) عبدالرحمن بدوي ، الاخلاق عند كنت ، مصدر سبق ذكره ، ص ٥٨ .
- (١٠٤) د. السيد محمد بدوي ، الاخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع ، مصدر سبق ذكره ، ص ٩٩ .
- (105) **Immanuel Kant , Groundwork For The Metaphysics Of Morals ,Ipad , P.88.**
- (١٠٦) عبدالرحمن بدوي ، الاخلاق عند كنت ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٧ .
- (١٠٧) د. السيد محمد بدوي ، الاخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع ، مصدر سبق ذكره ، ص ٩٦ .
- (١٠٨) أمانويل كانت ، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق ، مصدر سبق ذكره ، ص ٩٤ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٢٤ .
- (١٠٩) د. السيد محمد بدوي ، الاخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع، مصدر سبق ذكره ، ٩٧ .
- (١١٠) د. محمد مهران رشوان ، تطور الفكر الأخلاقي في الفلسفة الغربية ، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٣ ، ١٦٤ .
- (١١١) عبدالرحمن بدوي، الأخلاق عند كانت ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٣ .